

انتصار الإنسان أم مخترعاته في رواية الخيال العلمي العربية؟

أ/ جميلة بورحلة.

جامعة جيجل

أدب الخيال العلمي فضاء إيمكاني، يثير فيه الخيال عوالم مفترضة، تتجسد من خلال إعطاء الظواهر والأدوات العلمية المعروفة أبعادا جديدة، يجذب القارئ إلى اختلافها وغرابتها، كما يجذب إلى بنيتها الأدبية الخاصة التي لا تُعرف إلا من خلالها طبيعة نص أدبي ينتمي إلى الخيال العلمي، فهو ليس مجرد نوع أدبي هامشي موضوعه الوحيد اختراقُ أحواءِء وتأسيس عوالم إنسانية أو غير إنسانية بها، طبيعة الحياة عليها قائمة على الصراع والحرب من أجل البقاء أو من أجل نشر رسالة الخير بعدها هدفاً أسمى لهذا الصراع الفضائي. قد يتلاءم هذا وأدب خيال علمي موجه للطفل، تبعاً لما يتضمنه من قيم تربوية وأخلاقية تنمي تفكير الطفل منذ مرحلة متقدمة، بحياة مستقبلية رغدة تتوارى فيها قوة الظلام.

موضوع الفضاء قد يشير بالفعل مباشرة إلى أدب الخيال العلمي وقد يدعو اليوم بالذات للملل والرتابة لكثرة تداوله، كما قال جيمس غراهام بالارد أحد رواد الموجة الجديدة:

"أعتقد أن أدب الخيال العلمي عليه أن يعرض عن طرق موضوعات الفضاء والسياحة في أرجائه والسفر إلى أنجمه وكواكبه وأشكال الحياة التي تدب في جنباته وأرجائه التي لا يحدّها أفق، واستعراض الحروب التي تنشب بين سكان مجراته ومغازلة الأفكار والرؤى التي تنبثق منها والتي تسري في حواشي كل تسهّن عشر مجالات أدب الخيال العلمي والتي يوضح بها الكاتب إحالاته وسواء أدرك هؤلاء الكتاب الأمر أم غفلوا عنه فهذه الموضوعات تثير في نفس لقارئ السأم والملالة بما أكلها من تقادم وأصاها من عوامل البلى"⁽¹⁾.

اليوم، يثير هذا الموضوع بالفعل الملل إلا إذا مزجه صاحب النص بمواضيع أكثر حداثة، فيحيي نسبة التلقي العالية التي لحقت عهد جول فيرن، من مثل: الذكاء الاصطناعي، الإدراك الفائق للحواس والقدرات الفائقة، تجريد التاريخ من يقينياته وإعادة صناعته ومساءلته،

بناء عوالم زمنية ونفسية موازية، وهي اليوم تنبيء القاريء بأن النص الأدبي الذي يحتويها، خيالي علمي، دوغما حاجة إلى تيمة الفضاء⁽²⁾.

شواغل أدب الخيال العلمي اليوم أن يوجه المكونات العلمية التي بلغها المجتمع، وتلك المفترضة التي لم يبلغها بعد، مهما بلغت درجة غموضها، أو بعدها عن الحقيقة بمفهومها التقليدي الملازم للرؤية البصرية، لمساءلة دخائل العقل والنفس الإنسانيين، والكشف عما يمكن للطموح الفكري والهم النفسي أن يخلقه من آثار يمكنها توجيه المصير العام نحو غاياته الإيجابية أو السلبية. ومن ثم فغاية أديب الخيال العلمي أن ينفلت من حدود الموجود ويتخذ شعلة لإيقاد جذوة المنتظر، والذي لن يحل بالانتظار بل بخلق صور أدبية خيالية علمية، حتى وإن قيل عنها: إنها سابقة لأوانها.

ومن ثم فإن مفهوم الإنسان عند رواد الخيال العلمي ليس هو ذلك الكائن الناطق الذي ينطق بما هو موجود من بعد خطوات تلقينية دائبة متكررة، بل هو كائن يسأل ويخلق من رماد الحياة المألوفة أكوانا لامتناهية تناشد الترغيب في مستقبل آمن أو الترهيب من مستقبل مآله المحتوم الاضمحلال في قعر الشر، وهذان الهدفان مرتبطان بما يصنعه الإنسان ويقرره في حاضره، بطموحاته، بأهوائه، بحيله، برقيته وبحيوانيته وغرائزه⁽³⁾. وقد أصبح همُّ أدباء النوع الرئيسي هو ملاحقة وتأمل مظاهر الحاضر قصد الإمساك بصورة ممكنة من صور المستقبل "الذي لن يعيشه أحدٌ منا. خاصّة المستقبل البعيد. ولأنّ المستقبل أهم من الماضي، ولأنّنا نطمح إلى الحياة في هذا الغد أكثر من رغبتنا في العودة إلى البارحة، فإنّ القاريء والكاتب يلتقيان معاً فوق بساط منسوج من خيالات متجادلة ستكون فيه العلوم والتقنيات أكثر تقدماً مئات المرّات ممّا نعهده الآن"⁽⁴⁾. فالحاضر ليس نقطة ثابتة يشد بها الإنسان حبل السلامة بل هي نقطة مزيفة أو حاجز مزيف يحق فقط لطرفين امتلاكه؛ فكلما عاش الإنسان زمنا من حاضره فإن هذا الحاضر يتحول في جزء من الثانية إلى ماضٍ، وكلما عاش زمنا من حاضره أيضا فإنما هو يقتات ببطء أو بخفة من مستقبله، وهنا يلزمه طرح السؤال: كيف يمكنني توجيه حياتي، وكذا حياة المجتمع، والكون بأسره؟.

هذا السؤال مبتدأ وركيزة أدب الخيال العلمي، وتبتدى من بعد طرحه صور مفترضة لمصائر وأكوان وحيوات عديدة تدفع إنسان اليوم إلى اقتفاء أثرها المحمود أو احتراز أثرها

المذموم. وإذا لم يستطع الإنسان بالفعل العودة إلى ماضيه المنقضي قصد تصويبه، فبإمكانه عبر الصور الخيالية العلمية أن يقوم ويصوّبه أو يشوّهه ويدفع به إلى غياهب المستقبل عسى أن يتحقق بعضه أو جلّه بدلا من التحسر على صور وسلوكات وأفعال وأقوام وأمم زالت ولم يبق لها محل سوى الذاكرة.

يضاف إلى ذلك أن الحقيقة المطلقة لم تعد غاية بعض من العلماء فهؤلاء قد يرون ما لم يزل في حيز الغيب أكثر حقيقة من الذي تحققت معرفته، ومن ثمّ وجب تسخير كل الوسائل الممكنة والمتوفرة لبلوغ تلك الحقائق المحبوسة في حيز الغيب، وإن تكن من تلك الوسائل الوسائل الأدبية: ثل اللغة الأدبية وما يرتبط بها من عناصر التشكيل، كالاستعارة وما يلفها أحيانا من غموض وعدم وضوح الرؤية والهدف، فالوضوح واليقين لم يعودا هدفا أوليا لمثل: إسحق أسيموف، القائل: "ولست هناك متعة في كتابة العلم بالنسبة إليّ، إذا لم أستطع أن أبذل جهدا لاصطياد الضباب والألوان الفزحية الجذابة التي تنتمي إلى الحقائق المخطوفة من عماء الجهل، أكثر من انتمائها إلى أكاذيب واهية"⁽⁵⁾. فالحقيقة الفعلية هي الحقيقة التي ترتفع شيئا فشيئا بفضل الخيال عن سطح الحقائق المملة الرتيبة التي تزداد رتبة كلما مئزّ صحيحها عن خاطئها، إلى أن تكون صورا مخطوفة من عماء الجهل، منتزعة من كل ما لم يُعلم بعد ويتحقق، أي من كل ما هو متخيل أو يظل متخيلا، مؤجل التحقق باستمرار لموها لحة من الغموض، وهي بهذه الصفات توميء فعليا بوجود حقيقة، هي الحقيقة المتألمة المرتقبة وليس الحقيقة الواقعية الرتيبة؛ ومن ثم فالخيال قد أصبح عماد التقدم العلمي، والأداة المثالية التي يفك من خلالها العالم كثيرا من المسائل المجردة والغامضة.

وبذلك فالأدب ليس النمط التعبيري الوحيد المخول باستخدام الخيال، بل العلم كذلك أصبح يركز على هذا العنصر الفعال من أجل الارتقاء بحياة الإنسان، ولولا الخيال العلمي لما وجد كثير من المنشآت والمنجزات اليوم⁽⁶⁾. ويتحدث كثيرون عن مصدر الافتراضات العلمية، فيقال إن الإلهام قد يكون منطلق كل مخترع علمي، ومنه فالعالم في بداية طريقه، على شاكلة الأديب وفق التصور الأفلاطوني، يكون: عرافا، وساحرا، ونبيا، ورائيا... ومن هنا فالعلاقة بين الأدب والعلم قد صارت أكثر وضوحا من ذي قبل بفضل مرونة مفهوم العلم الذي أصبح يستعين هو الآخر بشدة بالخيال والإلهام وحتى الغموض⁽⁷⁾، والتي تعدّ

علامات مميزة للإبداع الأدبي أكثر من غيره من الأنماط التعبيرية. وهكذا أصبح العلم من جهة البعض إبداعاً متخيلاً، يتم عبر اللغة، قبل أن يخوض غمار التجريب.

وجب على الأدب اليوم أن يسترجع مفهومه الموسوعي القديم، أي أن يتحول إلى المرجعية الأولى التي يستخلص منها الإنسان المعاصر، الذي أوقعه التخصص في جبّ الفرقة والتعصب والمحدودية، مختلف القضايا: الأدبية والفلسفية والتاريخية والعلمية، وهذا ما يضطرنا لاستدعاء المقولة القديمة لابن رشيق القيرواني: "والشاعر مأخوذ بكل علم، مطلوب بكل مكرومة؛ لاتساع الشعر، واحتماله كل ما حمل: من نحو، ولغة، وفقه، وخبر، وحساب، وفريضة، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته، وهو مكتف بذاته، مستغن عما سواه"⁽⁸⁾.

ومن ذلك أيضاً أن أبرز أعلام الرومانسية الإنجليز وليام وردزورث قد أعلن في مقدمة كتابه المشترك مع صامويل تايلور كولريدج (Lyrical Ballads) (قصص شعرية غنائية شعبية) مناصرته للعلم، بعدما توجّست الرومانسية بجُلّ أعلامها خيفةً من أثر العلم في ضعف الأدب ومواته، كما تحدّث عن أثر العلم في توجيه انفعالات الإنسان، سرورا وألماً، وعن أثر الشعر في حمل مفاهي العلم ومقاصده وتسهيل فهمها وكذا تطويرها والسير بها نحو آفاق أوسع، فقد قال:

"وإذا كان على الجهود العقلية لأهل العلم أن تحدث على الدوام ثورة مادية مباشرة أو غير مباشرة في حالتنا، وفي الانطباعات التي نلقاها بحكم العادة، فإن الشاعر لن يتقاعس عندئذ أكثر مما هو في الوقت الحاضر، وسيكون متأهبا لاتباع خطوات رجل العلم، ليس في تلك التأثيرات العامة غير المباشرة وحدها، ولكنه سيؤازره حاملا الإحساس إلى خضم مقاصد العلم نفسه. وستكون أبعد اكتشافات عالم الكيمياء، وعالم النبات، وعالم المعادن هي الحد الملائم لفن الشاعر، مثل أي شيء يمكن استخدامها فيه، وإن كان سيأتي الزمن الذي ستكون فيه هذه الأشياء مألوفة لنا، وستكون العلاقات التي سيتأملها في ظلها أنصار هذه العلوم الخاصة بهم، علاقات مادية بصورة واضحة ولملموسة لنا ك مخلوقات ينتابها السرور والألم. وحين يأتي الزمن الذي سيكون فيه ما يسمى الآن "العلم" شيئا مألوفاً للبشر، فإنه سيكون مستعداً

أن يقدم، إذا جاز التعبير، شكلا من لحم ودم، وسوف تدعم الشاعر روحه المقدسة للمساعدة في تغيير المظهر، وسوف يرحب بالكائن المنتج بالتالي كشخص عزيز، ونزيل حقيقي ضمن أهل بيت الإنسان"⁽⁹⁾.

ويتبين من هذا أن الشاعر وردزورث قد استشراف آفاق المستقبل منذ قرنين من الزمان تقريبا، واستلهم بعض ما سيفعله العلم حتى في مجال "الإنسان الآلي"، الذي هو الآن حقيقة واقعة. وفي بيانه هذا دلالات ساطعة على ارتباط الأدب بعامة، والشعر بخاصة بالعلم.. وبالطبع فالشاعر لن يظل نائما أو غافلا عما يجري حوله، ولن يعزل نفسه عما يقوم به علماء الكيمياء والنبات والمعادن.. بل إنه سيؤازر هؤلاء العلماء بالإلهام، وبروحه الشاعرة المقدسة.. وبعبارة أخرى إن الشعر سوف يطرق أبواب أدب الخيال العلمي وسيقتحم مجاله⁽¹⁰⁾.

غيرت الثورة الصناعية والتكنولوجية صورة الحياة، فاستدعى هذا الأمر ضرورة مناقشة دور العلم في صناعة الغد، انطلاقا من فكرة أن العلم اليوم هو الموجه لحياة الناس على جميع الأصعدة، اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وفكريا.. وفي الغد سيكون هو الموجه لا محالة للحياة؛ سواء إلى ما فيه خير للناس أو إلى ما فيه ضرر لهم⁽¹¹⁾، وقد اتبع كثير من الأدباء والعلماء جول فيرن في طريقة وصفه وتخطيطه لحياة الناس، في علاقاتها بالعلم وتأثيرها به. لذلك فقد كان الرائد الأول دون غيره ممن سبقوه لأنه قصد إلى مناقشة أثر العلم في الحياة، ولم يكن حضور العلم في قصصه من قبيل الصدفة، أو أمرا عفويا واختياريا، بل مقصودا ومفتعلا، لأن العلم بانبثاق الثورة الصناعية أصبح الحوذي الذي يوجه عربة الحياة في مسالك متعددة ومختلفة، وهذا ما لم يحصل في عصور سابقة، وهذا أيضا ما يمنع منح السبق لكتاب قدامى قدموا صورا علمية في قصصهم، لأن ذلك الوجود كان عرضيا مؤقتا، يخدم سيرورة الأحداث في جزء منها فقط ولا يسايرها إلى غاية نهايتها وحلها⁽¹²⁾.

وكما أن النصوص القديمة التي تتضمن صورا علمية لا تعد من أدب الخيال العلمي فكذلك النصوص اللاحقة على زمن جول فيرن، فليس كل ما تتضمن منها صورا علمية يجعلها نصوصا أدبية خيالية علمية، نظرا لكثير من الاعتبارات والشروط التي يؤسس عليها النقد قيام أدب خيال علمي حقيقي، أبرزها: بناء حياة متخيلة جديدة انطلاقا من استقراء

مكونات الحاضر العلمية وعدم الارتكان إلى ماهو واقعي مرئي، وتجاوزته بطرح افتراضات علمية متعددة بغض النظر عن درجة إمكانية التحقق إن كانت قريبة أم بعيدة، المهم أنها مبنية انطلاقاً مما هو موجود، وليس انطلاقاً من الخيال الفانتازي البحث.

ما يلاحظ على أدب الخيال العلمي، ليس تعدد مفاهيمه فقط، بل تعدد مصطلحاته أيضاً؛ فقد تعاقب على تسميته عديد من المصطلحات، منها: استباق علمي (Anticipation)، (Scientifique)

دعابة/مزحة علمية (Humour Scientifique)، علم مروي (الذي يتقوّل روائياً) (Science Romancée)، الآداب المختلفة (Littérature Différentes)، خيال تأملي/افتراضي (Fiction Spéculative/Spéculative Fiction)، (SF)، يوتوبيا حديثة (Utopie Moderne)⁽¹³⁾، وهو جزء من الآداب الحدسية التي تشمل: اليوتوبيا والرحلات العجيبة وأدب الخيال العلمي (Les Littératures Conjecturales)⁽¹⁴⁾.

ولكل من هذه المصطلحات نقاط قوة ونقاط ضعف، أما المصطلح الأكثر التصاقاً بالنوع الأدبي فهو أدب الخيال العلمي، أولاً: لأنه أول مصطلح أطلقه هوغو جرنسباك يريف بهذا الجنس الأدبي الجديد في أول فترات انتشاره⁽¹⁵⁾. ثانياً: لأنه حاز شهرة واسعة، بفضل التسمية، لم يحزها وهو مسمى بمصطلحات أخرى. ثالثاً: فلأن الخيال العلمي أكثر استيفاءً لخصائص النوع الجديد رغم التطورات التي شهدتها فيما بعد، أو الإضافات الجديدة التي يثبها كاتب دون آخر.

أدب الخيال العلمي (La Littérature De La Science Fiction) أدب أولاً؛ لأنه لو استغنى عن عناصر الأدب، وعن بعض مقومات صناعة الشعر والمسرحية والرواية والقصة فسيتحول موضوعه إلى موضوع خاص بالعلوم البحتة وليس موضوعاً خاصاً بالأدب، وهو أدب خيال علمي؛ لأن موضوعه هو تلك الأفكار المتخيلة المفترضة المرتبطة بميدان علمي معين، والتي يشغل الافتراض فيها حيزاً أوسع من الوجود الواقعي المرئي المترسب في الحاضر. وهذه الأفكار العلمية لا تحتكر مكونات القلب الأدبي لوحدها وإنما تتجاوز مع الأفكار الأدبية ضمنه، ذلك أن كاتب نص روائي خيالي علمي مثلاً، لا يستعرض تلك

ار العلمية الواقعية والمفترضة لأجل ذاتها ومن أجل المتعة وترجية الفراغ الذي يحطم استقرار الإنسانية الحاضرة، وإنما هذا الكاتب الأديب المثقف ثقافة علمية أو العالم المتشبع بروح الأدب يستعرض تلك الأفكار العلمية من أجل مناقشة واقع الحياة الراهنة التي تسبب العلم أكثر من أي شيء آخر في وصولها إلى ما وصلت إليه، وأيضا بحث حياة مستقبلية مختلفة، من خلال تأمل بعض من جزئيات الحاضر، وليس إطلاق العنان للمخيلة حتى ترسم مستقبلا زاهرا أو بائسا دونما تأمل لوضع سابق يراه العالم الأديب أو الأديب العالم سببا في التطورات المفترضة اللاحقة.

ومن هنا يمكن أيضا الاقتناع بأن مصطلح: خيال علمي افتراضي/أو تأملي، وهما ترجمتان عربيتان لمفردة (Spéculative)، مصطلح ملائم لإطلاقه على النوع الجديد، ولكن مع ذلك فوضع المصطلح لا يتطلب بالضرورة ذكر جميع الكلمات الجزئية المعبرة عن بعض تفاصيله، فالافتراض والتأمل متضمنان داخل مصطلح: أدب الخيال العلمي، ويتداعيان إلى الذهن فور التلفظ به، ومن غير المعقول أن نتصور أدبا خياليا علميا دون افتراض صور حياة جديدة قائمة على تأمل أوضاع محددة. لذلك فإنهمال مفردة (Spéculative) من التسمية وعدم إظهارها ليس دليلا على عدم تعبير المصطلح عنها؛ فلو لا الافتراض والتأمل لما استرعى أدب الخيال العلمي الاهتمام الواسع الذي حظي به، ولما اختلف في شيء عن الأدب بمفهومه العادي (La Littérature Ordinaire).

وجرى أيضا الاستناد على الترجمة العربية للمصطلح الإنجليزي الذي وضعه جرنسباك (Science Fiction)، ففي الإنجليزية تقع الصفة قبل الاسم، فترجمه: خيال علمي وليس علم متخيل، من هنا تصبح (Fiction) عملا من أعمال التخيل يتناول خاصية أو فكرة علمية ما، في حين لو أخذنا بالترجمة الفرنسية (Science Fiction)، لابتعدنا بالتسمية عن المفهوم الأدبي العام؛ ذلك أن (Fiction) في هذه الحالة صفة للعلم وليس موصوفا له⁽¹⁶⁾، فنقول في العربية: علم متخيل أو علم تخيلي، والذي يميل حتما إلى العلم وليس إلى الأدب، ذلك أن الأدب أدب والعلم علم، ولا يمكن أن يتحول العلم إلى أدب بمجرد ارتكازه على الخيال الذي ظل فترة طويلة حكرا على الأدب، أو أن يتحول الأدب إلى

علم لمجرد ارتكازه على أفكار علمية أو استخدامه لأساليب علمية أيضا بين ثنايا الأساليب الأدبية:

Science - Fiction / Science - Fiction
صفة / موصوف / موصوف (علم متخيل) / (خيال علمي)

مصطلح "علم مروى" (Science Romancée) غير دقيق، وسيكون في هذه الحالة مساويا في مضمونه لمصطلح "رواية علمية" التي يُستغل فيها الإطار السردي لعرض التطورات الحاصلة في العلم لا أكثر.

علم تخيلي أو متخيل أو القصص العلمي التصوري أقرب إلى جفاف العلم منه إلى انطلاق الخيال الأدبي التأملي، مثله مثل القصة العلمية والرواية العلمية "ينطلقان من حقائق علمية، ويحاولان تقريبها من الأفهام بصوغها في قالب قصصي"⁽¹⁷⁾، فكأن المرء إزاء علم خالص يستخدم الخيال لأغراض علمية بحتة لا تتجاوز تحقيق الشيء المفترض في الحين، بدلا من خيال علمي بقلب الرتب حيث يقع المرء إزاء خيال أدبي يستثمر أحد الخصائص أو الموجودات العلمية. فالأول ينطلق من العلم صوب القالب الأدبي متوقفا عند حدود الشيء حقيق وهو يضطلع بأداء وظيفة وصفية تنحصر في تتبع أبحاث العلماء وسرد اختراعاتهم ومبتكراتهم، وتصوير تراثها ورد الفعل إزاءها ضمن القالب الأدبي الذي تقع فيه، أما الثاني فينطلق من الأدب صوب العلم لخلق الممكن المتخيل الذي لا يطلب لذاته ولا يطلب تحقيقه في أجل مسمى.

من شأن أدب الخيال العلمي أن يثير الملل فيحيط به الركود وعدم التجدد بالاستمرار في تكرار تيمة الفضاء مثلا، لولا تلك المواضيع الجديدة التي كان يبدع في إنشائها نفر من كتاب أدب الخيال العلمي، ولولا تلك الآراء النقدية والمفاهيم أيضا التي يطرحها النقاد المهتمون بتقييم نصوصه أسلوبا ومضمونا، ويؤخذ على أدب الخيال العلمي أيضا الكبوة الثانية التي أقعدته حبيس الملل والسآمة، وسببها الحرب الباردة التي حتمت على أدباء تلك المرحلة الاحتراز من التجديد وطرح الافتراضات العلمية الجديدة التي قد تكون سببا في أزمة مسلحة حقيقية.. لولا تلك الصحوّة التي حصلت بفضل مجلة "عوالم جديدة" التي أصدرها مايكل

موركوك سنة 1964م، التي أعلنت ميلاد الموجة البريطانية الجديدة أو العصر الذهبي الثاني للخيال العلمي⁽¹⁸⁾. فتدعم عندئذ أدب الخيال العلمي بمواضيع جديدة أخرى دون مراعاة أية رقابة مهما كان مصدرها، لأن دور أدب الخيال العلمي الحقيقي لا يتبدى إلا عندما يخوض في المشاكل العميقة التي يتخبط فيها الناس في واقعهم المعيش، وليس بالتفرغ عنها والانعزال دونها خوفا أو لامبالاة..

إن جمالية أدب الخيال العلمي ليست أية جمالية وإنما هي جمالية خاصة منبعها ليس زخرف الكلام ومحسناته وإيقاعاته، بل اجتماع العلم والأدب بحيث لا يقصي أي منهما ظهور الآخر، بل ينزع العلم ليفسح مساحة للأدب، كما ينزع الأدب ليدفع الأفكار العلمية للبروز والتوثب دون أن تشف عن سطحياتها وجفائها عن البعد الإنساني، ومن ثم يعد أدب الخيال العلمي موضعا متحققا لنزوال الفاصل المفروض قديما بين الجانب الذاتي الذي يسود الأدب والجانب الموضوعي الذي يبعث اليقين العلمي، وموضعا توج نداءات العلماء المحدثين الذين دعوا إلى ضرورة تجاوز فكرة اليقين المطلق وتمكين الذات من المشاركة في اكتشاف الحقيقة أو صنعها، ونداءات الأدباء الذين رفعوا القطيعة بين الفكرة الذاتية والفكرة الموضوعية، ومنها العلمية التي لا تقع خارج الذات وإنما هي جزء من الأجزاء الكثيرة التي تشكل طموحاتهم وأحلامهم وهمومهم الخاصة.

نكر دوما أن تكنولوجيا المعلومات والهندسة الوراثية بمنجزاتها المادية ليستا مدخلنا إلى العالم المنتظر؛ إلى الجنة أو إلى النار، وإنما مدخلنا إليهما يكمن في اختيارنا القطعي بين عبادة المادة عبادة مطلقة ورؤيتنا الأخلاقية لهذه المادة بحيث لا يأخذ بخيرها فرد واحد ويلقي للأغلبية بشرها، بل يجب أن تتقاسم الإنسانية السوية قاطبة خير ما فيها.

وهذه الرؤية القيمية ليست ضربا من التصور المثالي المتعالي على الواقع وإنما هي رد فعل مباشر على ما بلغه الفكر العلمي الحديث وخصوصا في جوانبه التطبيقية في سبيل بلوغ الإنسان الأعلى الذي تصوره نيتشه على أوراقه الفلسفية⁽¹⁹⁾، ولكن تدافعت الدول القوية لاستعباد الشعوب الضعيفة بحجة تجاوز التقاليد القديمة وترسيخ منطق القوة كما تدافع العلماء لبلورة ذلك المفهوم بيولوجيا بحجة ترقب الإنسان الكامل صحيا وجسديا وفكريا إما عبر التطور الطبيعي التدريجي في النوع الإنساني، أو عبر عمليات جراحية يتم فيها التحكم

بالجينات الوراثية وتعديلها لصالح الكمال الإنساني، وبموازاة ذلك محاولات أخرى لإيجاد فاعلية الآلة في عقل الإنسان وجسمه "للوصول بالإنسان عمليا إلى شكل من أشكال الخيال العلمي بصورة أعلى بكثير من السوبرمان الحقيقي بما سمي رَوبَطة الإنسان وَحَوسَبَتَه" (20)، وتلك هي خلاصات أبرز مقولتين في الفكر الغربي؛ مقولة فصل الدين عن الدولة التي اتخذها علماء القرن السابع عشر ذريعة لتحرير سلطان العلم من كهنوت الجهالة الكنسية (21)، ومقولة النشوء والارتقاء التي طرحها داروين في أواسط القرن التاسع عشر لإزالة الغموض عن أصل الإنسان (22)، فقد أفرزتا أكبر سلاحين ذوي حدين عند البشرية الراهنة؛ سلاحُ الاستنساخ والهندسة الوراثية وسلاحُ الحاسب الآلي والمعلوماتية للذات سينسجان معا خريطة المستقبل الغربي بله العربي، والسؤال الذي يستلزمه ظرف الحديث ههنا: ما موقف الكتاب العرب وتحديدًا كتاب رواية الخيال العلمي من هذه المكتشفات الإنسانية السابجة في حياة وفي فضاء الثقافة العربية؛ أهو موقف التلقي والخضوع أم موقف التصدي وإنقاذ الإنسان مما صنعت يدها؟.

الهندسة الوراثية تسير لتحقيق صحة مثالية للإنسان، وتسير في المقابل لاستنساخ الإنسانية إلى أجساد متطابقة (23)، حتى إن الإنسان المؤمن قد لا يدري من هو أمام نظيره، أو حتى قيمته أمام الإنسانية الجديدة!.

الهندسة الوراثية أحد أهم مظاهر الثورة البيولوجية منذ النصف الثاني من القرن العشرين (24)، فلم يعد همُّها البحث في آثار امتداد الإنسان عن الحيوان أو في أسباب توقف الإنسان عن التطور بعد ظهوره في شكله الإنساني، أو في إمكانيات تطوره الطبيعي على المدى البعيد، وإنما انصب اهتمامها على البحث في طريقة جديدة للتكاثر تتجاوز التوالد، ثم تحديد صور وهيئات معينة سلفا في رحم الجينة (أو الخلية الصغرى) قبل تشكيلها وتحولها إلى ذلك ما سمي بعملية الاستنساخ والتي انطلقت تجاربها على الحيوان وهي تخطو خطواتها للتطبيق الإنساني. فقد قدمت الهندسة الوراثية إنجازات باهرة في مجال زراعة الأعضاء البشرية الطبيعية والصناعية أما طموحها التقدمي/الرجعي فيتمثل في عملية الاستنساخ البشري "التي تستهدف عمل نسخ -مثل صور الكربون- من الكائن الحي، أي إنشاء كائن جديد (نسخة) من نوية خلية إنسان بالغ، ويحمل الكائن الجديد نفس الصفات الوراثية للشخص

الذي أخذت منه نوبة الخلية، وهذا يعني أن النسخة البشرية الناتجة سوف تبدأ الحياة بصفات وراثية مطابقة لنفس صفات الشخص الذي وهبها، ولو أن الفروق قد تدخل -فيما بعد- تعديلات على شخصية هذه النسخة أو نموها البدني، وعلى هذا النحو فإن الاستنساخ البشري قد يتيح للناس أن يروا أنفسهم وهم يولدون من جديد، وأن يملأوا العالم بتوائم لأنفسهم⁽²⁵⁾. ألهذه الدرجة تحوّل طموح الإنسان من استئثاره بالقوة والذكاء والأنانية في كل ما يخص صفاته وقدراته، إلى تطلعه لقسمة عادلة بين بني البشر ليس في الأموال والخيرات وإنما في شبه الأجساد والعقول!، وهذا ما يطرح عشرات الأسئلة عن مستقبل إنسانية الإنسان: هل بلغ به رقيُّه العقلي إلى أن يحوّل البشرية إلى كائنات حيوانية شبيهها أكثر من ها ولا غاية لها في حياتها وتعايشها إلا في شبيهها؟، ما مقياس الجمال أو القوة أو الذكاء الذي سينسبه للنسخة الإنسانية الأصلية؟، وماذا سيستفيد الإنسان من شبائحه المتعددة؟. ولننظر الآن كيف جسّد الكاتب العربي مصطفى محمود هذه المسألة في روايته (رجل تحت الصفر)، وكيف اتخذها منطلقاً لبناء الأحداث المتخيلة، وكيف سار بالحبكة إلى أي مدى جعل المكتشفات والاختراعات الإنسانية سبيلاً لانتصار الإنسان/هزيمته.

تعرّض الكاتب إلى ما يسمى اليوم بظاهرة الاستنساخ حيث جعل كل شخصيات الرواية التي جرت أحداثها سنة 2067م شخصيات متشابهة في الصورة، من ركاب وسائل النقل إلى طلاب الجامعة.. وما كان يفصل بينهم هو بطاقة الهوية التي تحتوي الاسم والسن وفصيلة الدم ورقم البروتين والمكافئ المغناطيسي والمعادل الكهربائي والحمولة العصبية.. هذه الشفرة الجبرية والرموز والأرقام هي ما يحدد شخصيتك⁽²⁶⁾.

وتصور مصطفى محمود أن العالم قد تعرض لحرب نووية عالمية سنة 1999م، مما أدى إلى انتشار أمراض فتاكة لم تعصم قويا ولا ضعيفا، فاتحد البشر لدواع إنسانية لأول مرة ملغين حدود الدول والأقاليم، شعارهم أخوة الألم والعذاب والموت، ثم اتحد العلماء للبحث في معضلة الفناء هذه. ومن عام 2000م توحد العالم في دولة واحدة وتوحدت الحكومات في مجلس عالمي وميزانية واحدة، وأصبح كل شيء وحتى الجيش مجندا لخدمة العلماء، بحثا عن الميكروب القاتل حتى تم التوصل للقاح الذي يوقف فيروس الموت عام 2003م، ونسي

الناس الموت والتفوا حول أخوتهم العالمية وحبهم السامي الذي عجز الفلاسفة والساسة حتى عن تخيل أشكاله، واستمرت مظاهر الخير: تحويل مياه البحر المالحة إلى مياه عذبة، ري الصحارى، سبل مواصلات فائقة السرعة، وقود نظيف، وكل ذلك من نتائج الاستغلال الإيجابي للطاقة الذرية: تكييف جو المدن، إحداث الرطوبة والجفاف على حسب الطلب، استنباط فواكه وخضراوات جديدة، مواصلات هوائية، صواريخ وأقمار.. مواصلات تحت أرضية تتحرك تلقائيا بالجاذبية الأرضية⁽²⁷⁾.

تطورت العقول والأخلاق والحياة المدنية، لكن هل تطور الحب؟ لا. هذا هو محور الرواية: الحب هو الشيء الوحيد الذي لم يتطور. وهذا ما ألح عليه مصطفى محمود في سبيل بقاء الإنسانية وليس بزرع الجنين الآدمي خارج الرحم وتربيته في أنابيب اختبار إلى أن يكتمل، ولا بالتحكم في عناصره الوراثية بمنحه الصفات الوراثية التي يريدها العالم ومحو الصفات التي لا يريدها، بدلا من الوالدين، كيف سيكون موقف الطفل عندما يكبر ويعرف أصله الجيني؟، ماذا سيصبح موقف المرأة ووظيفتها الحيوية في المجتمع: لا شيء؟ "إن العقل البشري غير مؤهل بمثل هذه الكفايات التي يرى بها الكليات والمجردات والبدائيات والنهايات.. هل رأيت الحقيقة.. هل عاينت الجمال أو الحق أو الحرية"⁽²⁸⁾، وهنا يضيف الكاتب "واعتقادي أن سر تعاسة هذا الجيل يكمن في المسؤوليات النفسية الهائلة التي يحملها.. لقد تسلم هذا الجيل مفتاح الطبيعة وفض مغاليق الحياة.. وبدأ يصنع الإنسان في برطمان وبدأ يتحكم في صفاته وخلقه.. وهي مسؤولية بشعة تزلزل أكبر العقول"⁽²⁹⁾. أليس هذا إحياء من الكاتب بأن هذا ليس سوى عصر جاهلية بوسائل علمية، أو أليس الإنسان الجديد حيوانا بدلا عن الحيوان الحالي لما يُسَقَط عن الحيوان من مسؤولية يجب تحملها أو غاية لا بد من بلوغها؟.

ولم يكتف مصطفى محمود بمناقشة قضية الاستنساخ وحسب بل طرح قضية أخرى تتعلق باكتشاف الموجات المغناطيسية، وانطلاقا منها تصور أن بطل الرواية الدكتور شاهين قد اخترع جهازا يستطيع بواسطته تحويل فئران التجارب إلى موجات سابحة في الفضاء بعد إرسال قذيفة مركزة من الأشعة من ذلك الجهاز، والنتيجة تفتت ذرات قليلة وانطلاق أمواج كهرومغناطيسية تلتقطها أجهزة حاسبة خاصة وتسجلها ثم تعكس الصورة كاملة على شاشة استقبال صغيرة، دون إمكانية طبعها لرجوع الفئران إلى حالتها الجسمية الطبيعية⁽³⁰⁾، ورغم

هذه المشكلة تملك الجشع العلمي البطل فراح يسلط تلك الحزمة الإشعاعية على جسده ليتحول إلى موجة طليقة تجوب أطراف الكون السحيق وتمد سكان الأرض بتفاصيل مشاهداته العجيبة بعد التقاط صورته على شاشة الاستقبال، وهنا يطلق الكاتب صرخته الثانية دفاعا عن مستقبل الإنسان السوي الذي لا يأخذ به هدف ذاتي لإفناء البشرية: "فماذا يحدث لو أن كل من في الأرض تحولوا إلى أمواج .. وخلت الأرض من الحياة البشرية وانقرض من عليها جنس الإنسان .. وربما أخذ معه الحيوان أيضا .. إنه الخراب الخراب .. وهي مقامرة قد تكون خاسرة، فقد يكون الإنسان في حالته الموجية غير فعال كما هو في حالته الجسمية الكثيفة .. قد ينتقل إلى حالة لاوعي فيها ولا إحساس ولا إدراك ولا إرادة فيصبح شبعا .. ظلا لا حول له ولا قوة"⁽³¹⁾. ألن يكون هذا أخطر من كل الأمراض والأوبئة الفتاكة التي عرفت البشرية؟!.

ختم الكاتب روايته بتلاشي صورة شاهين عن شاشة الاستقبال وشعور زوجته بالأسى الذي خففه مناجاتها لوليدها المنتظر⁽³²⁾، مما يوحي بأن بشرية جديدة ستنهض بعد هذا الحدث الرهيب، ولن تقوم على الثقة القصوى في افتراضات العلماء وإنجازاتهم وإنما على إرادة الإنسان وسعيه لتحقيق المصلحة العامة على أسس روحية ومادية معا، وهي أسس بناء كل حضارة سليمة قديما وحديثا ومستقبلا، ومن ثم فهذه الرواية لا تنفي أهمية العلم في حياة الإنسان ولكنها تدعوه إلى أن لا يتخذ المنطلق والمنتهى، بل وأيضا تدعوه إلى التدبر فيما الله وأولاه وأقربه للإنسان خلق النفس التي يحيا بها ثم الأرض التي يعيش عليها قبل أن يوجه المناظير والصواريخ إلى كواكب ومجرات جديدة ولم يحل بعد مشاكل نفسه وأرضه.

أما تكنولوجيا المعلومات فهي تسير لتحقيق الرفاهية المعرفية للإنسان بإنجاز خادم آلي يتيح حفظ بياناته الشخصية وبيانات العمل بل وحتى الاتصال وتبادل المعلومات بالصوت والصورة، وتسير في المقابل لتحقيق سيطرة الدول التي لا تملك سوى تكنولوجيا المعلومات على الدول التي تملك الأراضي الشاسعة والمال ومصادر الطاقة⁽³³⁾، ثم تسير برامج الحاسب الآلي ذاتيا لتحقيق سيطرتها الشاملة على الإنسانية فقيرة أم غنية، عندما ستتلاشى الذاكرة البشرية مسلّمة زمامها لبرنامج من برامج الحاسوب، أو عندما سينطق إليه هذا البرنامج ساخرا بأن

المعلومة المطلوبة خاطئة ولا تتطابق مع المعلومة المخزنة في اليوم كذا وعلى الساعة كيت، عندها لابد لعقل الإنسان أن يقدم استقالته!

في ظل هذه الحتمية التكنولوجية المفترضة لابد للإنسان أن يطرح السؤال التالي وإن كان يخصّ إنسان المستقبل، لأن الطريق ممهد وآثاره بدأت تظهر: من هو الإنسان الحقيقي؛ هل هو الإنسان الذي أقال عقله إراديا، إن لم يكن قد أقيل من قبل جسد الولادة الأصلية دون إرادته، أم الإنسان هو البرنامج الذي يقبع داخل هيكل الحاسوب، فيخزن ويسترجع، ويحجب ويحلل ويخطط، وربما يتنسم ويغضب، وكيف المعلومة ويضرب؟!.

يحصل هذا إذا لم يقيم الإنسان بالتخطيط لمستقبله، ببناء برنامج استشرافي يحدد فيه الخيارات التكنولوجية والمادية اللازمة لتحقيق رفاه جمعي لا فردي يسير بالإنسان إلى أن يظل سيد الكون لا يتسبّد عليه ما صنع بعقله ويديه، ولا يترك ميراثه لغير الإنسان!.

ونظرا لأن تكنولوجيا المعلومات قد أصبحت تشغل حيزا هاما في حياة الإنسان اصر فإنها تشكل مادة أساسية في صياغة روايات الخيال العلمي العربية التي تعد نموذجا رائدا وسباقا في بحث هوية الإنسان العربي المعاصر، ومنها رواية الكاتب سمير شمس بعنوان (عند حافة الكون)، التي نتلمس من خلال صورها الأدبية/العلمية إثارتها لبعض من مشاكل العملية التعليمية العربية والواقع العلمي العربي، مما يفرض علينا طرح عديد من الأسئلة من شاكلة: ما المدى المفترض الذي يمكن أن يبلغه امتداد ثورة الإنفوميديا إلى الحياة العربية والعقل العربي خلقا وإبداعا؟، ما الصورة المفترضة أو الصور التي يحتمل أن يخلفها فصل الإنجازات التكنولوجية عن القيم الأخلاقية فيما يخص متعلقات الإنسان؛ جسدا فكريا روحا؟، ما الحقوق الإنسانية الأخلاقية العربية التي لابد من استرجاعها في مواجهة المد الجارف الآتي والآتي لتكنولوجيا المعلومات الغربية التي تأتي في ظل المعطيات الراهنة أن يكون الإنسان مستقبلا سيدا للكون وعبدًا لله، بل عبدا للآلة والمعلومة؟، وكيف يتصيد الأديب العربي الكلمة الأدبية/العلمية والخيال الأدبي/العلمي والواقع العربي الراهن لبناء صورة إنسان عربي متكامل يتخذ من قيمه الأخلاقية العليا نقطة ارتكاز تدور حولها المتغيرات التكنولوجية المعلوماتية التي تحفظ للهوية العربية الإسلامية ماء وجهها أمام هويات الآخرين؟.

قدم سмир شمس في روايته بعدا علميا من خلال نقل وتضمين معلومات علمية، وبعدا من خلال الإجراء الأدبي المتجسد في قالب الرواية ووحداها من شخصيات وحبكة وسرد وحوار ووصف، ثم بعدا متخيلا يتقاسمه العلم والأدب، وكان من خلال هذه الأبعاد الثلاثة مقتفيا أثر الغاية التعليمية مفترضا تحسن الطريقة التعليمية للنشء القادم، مستغلا الحالة التي بلغتها تكنولوجيا المعلومات. فقد تصور شمس أن بإمكان العلماء العرب أن يشيّدوا محطة تعليمية متطورة شبيهة بمقصورة سفينة فضائية بحيث تحتوي على كمبيوتر مركزي ذكي يرتبط بكافة وسائل الاتصال الخارجية وأجهزة الكمبيوتر المصغرة فيوزع المعلومات عليها، وقد سماه تارة "السوبر كمبيوتر" وتارة أخرى "العقل الكبير"؛ وهذا الجهاز لا يقدم معلومات صورية ومكتوبة وحسب بل صورية متكلمة أيضا بحيث تتولى فتاة افتراضية مبرمجة الإجابة عن كل الأسئلة المطروحة عليها صوتا لا كتابة عن طريق الرقن على شاشة الحاسوب⁽³⁴⁾.

وتبدأ الرواية ثلاثة شبان يحتمون بطاحونة قديمة من المطر، يدخلونها فيتيهون، فإذا داخل غرفة تحكّم مليئة بالأزرار والشاشات فحسبوا أنهم داخل سفينة فضائية كل ما بداخلها يوحي ويشير بأنها صناعة عربية خالصة. ثم تبدأ رحلة السفر في الفضاء لاكتشاف أغوار الكون من أدنى الأطراف القريبة من الأرض إلى أقصاه، وفي غمرة هذا الدهول يحاول سмир شمس ردنا إلى أزمة الواقع العربي العلمي: "ما الذي يؤخرنا نحن العرب ولدينا علماء كبار يعملون في وكالات الفضاء الأميركية والأوروبية. أهى حكوماتنا التي تنظر إلى المشاريع الفضائية على أنها ترف لا نستحقه حتى الآن. أم هي الجامعات التي تخرج العلماء ولا تتواصل معهم لإنشاء وكالة فضاء عربية أو حتى رابطة تستفيد من خبرات علمائنا وتسخرها لمنافسة الغرب في أحلامه الفضائية"⁽³⁵⁾. وداخل هذه الغرفة تعرّف الشبان على الرجل الآلي الذي كان يمدّهم في كل مرة بالمعلومات التي يطلبونها، وإذا عجز يوكّلها "للسوبر كمبيوتر" الذي زوّد بإمكانية التواصل مع المحيط الخارجي وكافة وسائل الاتصال⁽³⁶⁾.

إذا كان هذا الرجل الآلي مبرمجا للإجابة عن كل الأسئلة أو لحل أية مشكلة، ما ستصبح قيمة الكتاب، أو وظيفة الدماغ؛ هل السؤال وانتظار الجواب دون بحث ومشقة في طلب العلم والارتحال إليه إن وُجد ولو في الصين؟! بإمكانك أن تحمل مخزّنا إلكترونيا يحتوي ألف كتاب بدل أن تحمل ما لا يزيد عن ثلاثة كتب بيدك! بإمكانك أن تستفيد مساحة

أرضية كبيرة بدلا من تخصيصها لخزائن الكتب، بإمكانك الحصول على كتاب من مكان قصي بفضل شبكة المعلومات بدلا من السفر، لكن هل سيقتي ذلك من شيء من متعة التأمل والارتحال بصحبة كتاب؟!.

كل شيء أصبح ممكنا اختصاره، شبكة المعلومات هي شبكة الاختصار والذاكرة الحية، تحكم على الدماغ أن يتقلص وينكمش ويسلم زمامه لأسلاك كهربائية تختصر مافات، تحرمه حتى من الخروج من البيت بل من غرفة بل من الإقلاع عن كرسي، لأنها تختصر كل شيء داخل شاشة فما بالك لو كانت هذه الشاشة كما افترض سمير شمس تسمع فتجيبك، تسألها عما كان فتستحضره وتستفسرها عما هو آت فتصوره لك؛

"السوبر كمبيوتر يستطيع احتساب ترليون عملية في الثانية الواحدة. وكذلك يستطيع محاكاة انفجار أحد الشموس أو إعصار مدمر على أحد الكواكب أو حركة المجموعات الشدية والمجرات والقيام برحلات افتراضية إلى أي منها مهما بعدت مسافتها (...). يستطيع مضيفي تقليد عناصر المناخ في الأجواء والمحيطات ضمن بقعة تصل إلى خمسمئة مليون كلم مربع وعمق عشرة كيلومترات في الماء وارتفاع مئة كيلومتر في الجو (...). قيام بهذا الأمر يستعمل مضيفي جزءا يسيرا من قدراته وهي تلك المختصة بمحاكاة الأرض إذ يحول البيانات العلمية التي تجمعها الأقمار الاصطناعية والمحطات الأرضية وأجهزة الاستشعار المختلفة إلى توقعات عن حركة الأرض والمناخ تمتد إلى عشرات السنوات في المستقبل.. وهو يملك لهذه الغاية قدرة حل أربعين مليون مليون مسألة في الثانية الواحدة"⁽³⁷⁾.

ولكن السؤال الذي يدفع للاستغراب في مثل هذا التقدم المفترض هو: ما التقدم اللاحق الذي سيبلغه الدماغ البشري إذا كان سيسلم طاقة أفكاره للآلة؟، بل وبدأ يسلمها بالفعل ونحن نرى ذلك جليا في الغرب في الجراحات الطبية الدقيقة والتلاعب بالخلايا النباتية والحيوانية وحتى الإنسانية تحسبا لثورة زراعية خضراء ولم لا ثورة في الاستنساخ الحيواني والبشري!.

وذلك بين أيضا في تطوير نظم المحاكاة الآلية لتحسيد حرب افتراضية يخوضها الجنود على شاشة الحاسوب قبل خوضها واقعيًا، وهذه العوالم المصطنعة لن تشمل مستقبلا مجال الحرب الافتراضية أو ألعاب الفيديو وإنما ستشمل مجالات عملية أكثر نفعا؛

"وعما قريب سنبيع ونشتري خلال أسواق وهمية، ونزور متحف اللوفر الوهمي دون ما حاجة للانتقال إلى باريس، ونتحول في مقبرة توت عنخ آمون ونحن على بعد آلاف الأميال من وادي الملوك بالأقصر، وسيشغل التلاميذ وهم جلوس في مقاعدهم مفاعلاتهم الذرية الوهمية ومصانعهم الكيماوية المصطنعة سيقومون برحلات المحاكاة المثيرة تسري بهم في مجرات الفضاء الخارجي أو خلال سراديب التفاصيل الدقيقة داخل الخلية البشرية، وإن ضاقوا بالمكان أو ضاق بهم فلهم أن يبحروا خلال الزمن يسترجعون عوالم الماضي القريب أو سحيق، أو يعيشون بهذا الزمن، يعيدون ترتيب سلاسل أحداثه في توليفات مثيرة فيما يعرف بالخلط الزمني"⁽³⁸⁾.

إذا كان الغرب قد عرف سر صناعة مثل هذه التقنية ويمتلك إرادة الفعل لتطويرها، فهل يملك العرب إلا صخرة الاستيراد على ظهورهم يرفعونها إلى أعلى جبل المجد تفاخرا بينهم ثم لا يلبثون رميها والجري لأسفل نحو صخرة جديدة لن تلبث أن تفرقهم فتتركهم مجددا إلى درك الاستيراد، فلا هم سرقوا ما استأثروا به أسياذ العلم ولا هم حاولوا أن يكتشفوا ما مصدر القوة غير المال!

ولكن ماذا سيستفيد العالم عربيا وغربا من استبداد الآلة بالحكم؛ غير الاتصال السريع والحصول السريع على المعلومة، والتجريب الافتراضي قبل التحقيق، إذا كانت الآلة العامل الناهي أليست الأتمتة الشاملة حكما نهائيا على الإنسان بالفناء، فإذا لم يعمل شيئا بعضلاته سيصبح بطالا، إذا ظل جالسا على كرسي ملازما آله الذكية سيصبح وحيدا، إذا ظل يسأل والآلة تجيب سيصبح شيئا، وما الضامن أن الجواب صحيح لا يجانبه خطأ أو أن مخططا افتراضيا ما سيكون ناجحا بالفعل كما حددته الآلة؟! فالخطر في استيراد مثل هذه التقنيات على علاقتها يكمن في:

"أن هذا النوع من الثقافة الغازية يدفعنا إلى مزيد من العزلة، ومزيد من العيش في عالم افتراضي، يتم فيه غسل الأدمغة، تحت تأثير ثقافة تافهة جوفاء، تجعل المرء يعيش الحياة لحظة بلحظة، وكل لحظة تنتهي إلى لا شيء، لأننا لا جذور لها، مستقلة عما قبلها وما بعدها! ... وبالتدرج نتخلى عن ذواتنا وعن مسؤولياتنا الاجتماعية التي هي هدف وجودنا. لكننا إذا مددنا الأمور على استقامتها فسنذكر أن هذه الرغبة في التخلي عن الذات وعن المسؤولية هي شرط لا غنى عنه لتحقيق الاستبداد، أي أننا نحن أنفسنا من نصنع طغائنا، وتحولنا المعلومات العارية من المعرفة والحكمة إلى "قطيع" ... قطع عصر المعلومات والاحتميات"⁽³⁹⁾.

في هذه الحالة سيموت من كان يوما ما إنسانا يأكل الطعام ويعمل ويكد ويبحث ويكتشف، أم إذا كان سيكفيه في زمن الأمتنة حبوب مركزة تحتوي على الطاقة الكاملة لأي طعام أو شراب كما افترض سميّر شمس في روايته⁽⁴⁰⁾، فهل يكفيه أن يعقل عقله البيولوجي فقط ما علّمه للعقل الإلكتروني من عمليات التخزين والربط والدمج والاستنتاج والافتراض من معارف مخزنة من قبل، بينما حبا الله العقل البيولوجي بالذاكرة والنسيان والتصور والتفكير والإدراك والاستنتاج والحدس والتخيل والتوهم والبصيرة والإبداع، كما حبا بالروح، فهل للآلة من روح؟.

يقول شمس على لسان الرجل الآلي: "مساكين أنتم البشر .. تخافون على أرواحكم بينما أنا لا روح لدي لأخاف عليها، فالحياة والموت بالنسبة إلي معلقان بكبسة زر، فهو إما أن يطيلها وإما أن يقصرها"⁽⁴¹⁾، وقوله أيضا: "تبادر إلى ذهني ذلك الكم من المشاعر والأحاسيس التي تغلف حياة بني البشر وتسيرها، بالمقارنة مع هذا الآلي الذي يفتقد إلى كل تلك الصفات الإنسانية وتدفعنا إلى التعلق بالحياة والتواصل فيما بيننا وتنمي فينا الحلم والمخيلة وحب الاستكشاف وسير أغوار المجهول. فهل الرجل الآلي يرثي لحالنا لمجرد أننا نملك تلك الصفات النبيلة"⁽⁴²⁾. وقوله: "إن العقل الذي خص الله سبحانه وتعالى به الإنسان هو معجزة الخالق في خلقه لأنه يقي السر الوحيد في هذا الكون الذي يشير إلى عظمة الخالق وروعة خلقه .. وها نحن فوق المريخ لنستعمل عقولنا بدل الأجهزة محدودة الذكاء في كشف

غوامضه، وإضافة صفحة جديدة إلى علوم الإنسان التي بقيت حتى هذه اللحظة تجهل أسراراً كثيرة عن هذا الكون الرحيب⁽⁴³⁾.

لم يفك الإنسان طلاسم عقله البيولوجي فكيف به ادعاء سيطرة العقل الإلكتروني يوماً ما على الكون، والإنسان ليس عقلاً فقط بل هو كائن يتداخل فيه عناصر عدة من عقل وقلب وروح ونفس حتى يصعب تحديد موضع كل منها أو الحدود الفاصلة بينها، فكيف بالإنسان يدعي سيطرة الآلة عليه وهي لا تملك إحساساً بالأشياء بينما هو تسكنه في لحظة قصيرة مشاعر متضاربة فيغضب ويفرح يكره ويحب يطمع ويقنع.. ويده إيقاف تشغيل الآلة إن ملّ منها أو تدميرها إن أحس بخطورها قبل أن تدمره. أما إن تصور إنسان اليوم أنه أفضل من أخيه الإنسان الذي عاش قبله بسبب امتلاكه التلفزيون والهاتف النقال والحاسوب والشبكة، فهو يتوهم الأفضلية لأن اعتماد مقياس التطور يعني أن إنسان اليوم سيكون لأشياء أمام إنسان الغد الذي سيقس ذاته بحجم المخترعات التي تدور حوله ولكنها لا تحدد جوهره؛ لأن الإنسان يظل إنساناً حتى وإن لم يستعمل من الآلات التي تحيط به شيئاً، وإلا ما الذي يحدد سعادته في بيئة خالية من مظاهر العلم ويفسر تعاسة آخر تحيط به كل تجلياته. مما يؤكد أننا ضيوف في هذا الكون نؤدي أدوارنا على مسرح الحياة بوجود العلم أو بدونه، ونحن سواء مع من سبقونا ونحيا نفس تفاصيل معيشتهم، لكن بلباس مختلف وكلمات مختلفة وعمليات مختلفة، ولما يسقط القناع؛ السماء نفسها، الأرض نفسها الخير ذاته والشر ذاته.

تتضمن هذه الرواية الخيالية العلمية أمل الكاتب وآخرين غيره بتطور العملية التعليمية العربية، بأن تتحول من مجرد تلقين المعلومات للطلبة عبر وسيط هو الأستاذ إلى التعلم الحر من الطالب بالتحاور والتفاعل مع الآلة بما تحتويه من معلومات شاملة لشتى المعارف ولما تحتويه أ من وسائط صورية وسمعية متطورة يعجز الأستاذ عن مجاراتها. هذا الواقع الافتراضي يراه الكاتب ميداناً خصباً لتطوير التعليم العربي، والمضي به نحو آفاق الكون الرحبة لأن البرامج الإلكترونية في هذه الحالة ستوفر المعلومات الجاهزة، كما ستقدم صوراً افتراضية تحاكي المحتمل في فضاء الوجود. ولكن الغريب في هذا الطرح الأدبي: هل أدرك سفير شمس واقع التبعية الذي يتخبط فيه العرب ويمنعهم من التفكير في تطوير سبل التعليم قبل تطوير سبل حياة أخرى تتعلق بالبدن لا الروح؟. لم يناقش شمس القضية صراحة، ولكن

يتوثب من بداية الرواية أمل صريح في أن يخترع العلماء العرب مركبة فضائية تنطلق من بلدة ولكن الألم يسبقه بسبب حكومات تنظر إلى مشاريع العلم على أنها ترف، أو جامعات تخرج العلماء ثم لا تتواصل معهم.

وختام الكلام قولنا إن التخيل قسمة الجميع وليس لأحد حق الاستئثار به، وإذا تمكّن قوم من تحويل المتخيل إلى واقع بفضل عوامل لم تتحّ لقوم آخرين فيإمكان الجميع تبادل المنفعة لدواع إنسانية بحيث لا يحتكر أحد الخير لذاته مبقيا الغير في تبعية مهينة، تشير لذوبان الهوية الفردية في إطار هوية لا إنسانية وإنما شرقية أو غربية؛ روسية أو صينية، أمريكية أو أوروبية، والأمر متعلق تحديدا بالأمة العربية التي يوحى وضعها الراهن بانسلاخ وشيك ضمن ذات إيديولوجية غربية غايتها الوحيدة من العولمة والعلمنة اقتلاع الشعوب من جذورها الدينية والثقافية الأصيلة. وبما أن الدين الإسلامي عماد هوية العرب وبما أن اللغة العربية علامة تلك لهوية، فمعنى ذلك أن استبدال العرب المنتجات العلمية على علاقتها بالدين واللغة لن يزيدهم لا علما ولا قوة ولا احتراماً بين الدول وإنما فقط سيرسخ لعبوديتهم وفقدانهم للمكانة الروحية بين الدول فضلا عن المكانة المادية التي فقدوها من قبل، لأن الدين واللغة ليسا سلعة تستبدل أو تباع وتشترى وإنما هما ميراث رباني قبل أن يتنزلا إلى أرض البشر، وقد توالى أجيال للحفاظ عليه، فأنى لجيل واحد يدعي المعرفة أن يتخلى عنه في سبيل ماذا؟ في سبيل الآلة! وبدلا من ترديد السؤال: أي شيء يجب علينا أن نتخلى عنه؟ لم لا يكون المطلوب: كيف لنا أن نجمع جمعا إيجابيا بين شيء أصيل فينا لا نستطيع التخلي عنه في جميع الأحوال والمعطيات التكنولوجية التي أصبحت جزءا ضروريا في حياتنا المعاصرة؟.

الهوامش:

1- إيستفان سيسري وروناي جونور، "أدب الخيال العلمي والاتجاهات النقدية"، تر: أحمد هلال يس، مجلة فصول، مجلة النقد الأدبي علمية محكمة، ع 71، الهيئة المصرية العامة للكتاب، صيف - خريف 2007م، ص ص 116، 117.

2- المرجع نفسه، ص 116. وينظر أيضا مقال بعنوان "خيال علمي"، ضمن الموقع الإلكتروني: <http://ar.wikipedia.org/wiki> > آخر تعديل للصفحة كان في: 17 يونيو 2008م، h17:12 gmt.

- 3- سمر روجي الفيصل، أدب الأطفال وثقافتهم: قراءة نقدية - دراسة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998م، ص 53.
- 4- محمود قاسم، الخيال العلمي أدب القرن العشرين، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2006م، ص 11.
- 5- إسحاق أسيموف، الحقيقة والخيال، تر: محمد جمال الدين الفندي وجابر عبد الحميد جابر، دار المعارف بمصر، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، ماي 1965م، ص 10.
- 6-Boris Vian, cinéma science - fiction, choix, préface et notes par: Noël Arnaud, 06^e, Christian Bourgois Editeur, Paris, 1978, p 83.
وينظر أيضا مقال ل: شوقي بدر يوسف، "أدب الخيال العلمي وصناعة الأحلام"، مجلة عمان، مجلة ثقافية شهرية، ع 118، صادرة عن أمانة عمان الكبرى، نيسان 2005م، ص 78.
- 7- إد زكريا، التفكير العلمي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس 1978م، ص ص 241، 242.
- 8- القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، حققه وعلق عليه وصنع فهرسه: النبوي عبد الواحد شعلان، ط 01، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1420هـ، 2000م، ج 01، ص 317.
- 9- نقلا عن كتاب، روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي، تر: حسن حسين شكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996م، ص ص 18، 19.
- 10- روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي، تر: حسن حسين شكري، ص 19.
- 11- فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ص 140-142، وينظر أيضا مقال ل: جيمس جن، "مسيرة أدب الخيال العلمي من ه. ج. ولز إلى روبرت هينلين"، ضمن كتاب، روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي، تر: حسن حسين شكري، ص 56.
- 12- محمود قاسم، الخيال العلمي أدب القرن العشرين، ص ص 15 - 18.
- 13-Gérard Diffloth, La science – fiction, 09^e, Langage des hommes, Collection Promo, Editions GAMMA – Presse, Paris, pp 04, 05, 12.
- 14-Pierre versins, Encyclopédie de l'utopie, Des voyages Extraordinaire et de la science fiction, Editions L'age d'homme S.A-Lausanne, 1972, p 05. Et Voyant, Gérard Diffloth, La science - fiction, p 04.

- 15- جيمس جن، "مسيرة أدب الخيال العلمي من ه. ج. ولز إلى روبرت هينلين"، ضمن كتاب، روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي، تر: حسن حسين شكري، ص ص 62، 63.
- 16-Gérard Diffloth, La science - fiction, pp 04, 21.
- 17- سمر روجي الفيصل، أدب الأطفال وثقافتهم: قراءة نقدية - دراسة، ص 52.
- 18- إيستفان سيسري وروناي جونيور، "أدب الخيال العلمي والاتجاهات النقدية"، تر: أحمد هلال يس، مجلة فصول، ع 71، ص ص 115، 116.
- 19- حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ط 01، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م، ص 119.
- 20- علي عبد الحميد طنطاوي، الإنسان الآلي في مواجهة إنسان العالم الثالث، دار المعارف، القاهرة، 2003م، ص 04.
- 21- حسان حلاق، تاريخ العلوم والتكنولوجيا عند العرب - مع دراسة للمؤثرات الحضارية والعلمية العربية والإسلامية في أوروبا، ط 01، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1428هـ، 2007م، ص ص 22، 23.
- 22- موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، تر: فوزي شعبان، المكتبة العلمية، ص ص 28-37، وينظر أيضا في مسألة التطور كتاب، صلاح محمود عثمان، الداروينية والإنسان - نظرية التطور من العلم على العولة، ط 01، منشأة المعارف بالإسكندرية، 2001م، ص ص 18، 101.
- 23- علي أحمد مذكور، التربية وثقافة التكنولوجيا، ط 01، دار الفكر العربي، القاهرة، 1423هـ، 2003م، ص 245.
- 24- صلاح محمود عثمان، الداروينية والإنسان - نظرية التطور من العلم على العولة، ص 228.
- 25- علي أحمد مذكور، التربية وثقافة التكنولوجيا، ص 247.
- 26- مصطفى محمود، رجل تحت الصفر، رواية، ط 06، دار المعارف، مصر، ص ص 03-06.
- 27- المصدر نفسه، ص ص 07-15.
- 28- المصدر نفسه، ص 24.
- 29- المصدر نفسه، ص ص 27، 28.
- 30- المصدر نفسه، ص ص 45-52.
- 31- المصدر نفسه، ص 58.
- 32- المصدر نفسه، ص ص 96-98.
- 33- علي أحمد مذكور، التربية وثقافة التكنولوجيا ص ص 304، 335.

- 34- سمير شمع، عند حافة الكون، أول رواية من الخيال العلمي في العالم العربي، البحوث العلمية استنادا إلى وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) - ومصادر أخرى، ط 01، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، مارس 2006م، ص ص 133، 302، 303.
- 35- المصدر نفسه، ص 21.
- 36- المصدر نفسه، ص 24.
- 37- المصدر نفسه، ص ص 303، 304.
- 38- نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل 1994م، ص 17.
- 39- علي أحمد مدكور، التربية وثقافة التكنولوجيا، ص 311.
- 40- سمير شمع، عند حافة الكون، أول رواية من الخيال العلمي في العالم العربي، البحوث العلمية استنادا إلى وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) - ومصادر أخرى، ص 32.
- 41- المصدر نفسه، ص ص 29، 30.
- 42- المصدر نفسه، ص 31.
- 43- المصدر نفسه، ص 139.